المثل الأعلى

الحياة معركة نصفها أن تعرف نفسك
ونصفها الآخر مثل أعلى مناسب فى الحياة .
« حكيم »

هذه الكلمة — كلمة حكيم — تُنير طريق الحياة ، وتدل على كيفية السير فيه .

هذا الطريق نصفه أن تعرف نفسك على معنى أن تعرف مواضع النقص فيه لتكملها ، ومواضع الكمال فيها لتنميها . ونصفه الآخر مثل أعلى ترسمه لنفسك ، ثم تضعه أمامك هدفا لك ، وتسدد اليه جهودك مسرعا نحوه على أن تحاسب نفسك آخر كل يوم حين تخلد الى الراحة من عناء العمل ، وصخب الحياة ، تحاسبها : كم قطعت فى سبيله ؟ وكم يتبقى للوصول اليه ؟ بهذا تصبح « انسانا » لا ينظر الى الدنيا من خلال تلك اللوعة العميقة التى ينظر منها الذين يسيرون على غير هدى فى طريق هذه الحياة . وانما ينظر اليها من نافذة الدنيا على وجهها الصحيح :

واذا كان هذا « الحكيم » يُشَبه الحياة بمعركة . تكسب نصفها اذا عرفت نفسك ، وتكسب نصفها الآخر بأن تحصل على مثل أعلى مناسب فى الحياة . فما هو هذا المثل ؟ وهل هناك مثل أعلى يقره الجميع ؟ وما هى القاعدة التى ينبغى أن تقيم عليها مثلك ؟ واذا كان الناس ينتزعون مُثُلَهم من « البيئة » التى يعيشون فيها فما هو « المقياس » الذى يقاس به ، أو ينبغى

أن يقاس به هذا المثل ؟ وأخيراً ما سر فشل بعض الناس فى هذه الحياة ؟ وهل من صورة نتخذها فى حياتنا مثلا ؟

كلمة « المثل الأعلى » وردت فى القرآن الكريم، فقال تعالى، فى (سورة النحل آية ٦٠) « وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ » وأول ما يرد على ذهن من يقرأ هذه الآية . هـــذا السؤال : أيجوز أمام هذا « النص » أن نُسند المثل الأعلى لمخلوق ؟

للجواب ينبغى أن نعرف أولا : ما هو « مدلول » المثل الأعلى الذى أسنده القرآن الكريم إلى الله العزيز الحكيم ؟

اتفقت كلمة « المفسرين » على أن « مدلول » المثل الأعلى — فى الآية — هو « الصفة المقدسة المنزهة عن المماثلة » واختلفوا فى تحديدها : فالفخر الرازى يقول : هى كونه تعالى « منزها عن الولد »[1] ويُرشح هذا المعنى قوله تعالى فى آية سابقة : « وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ الْبَنَاتِ سُبْحَانَهُ وَلَهُمْ مَا يَشْتَهُونَ » (النحل ٥٧) وأبو السعود يفسرها بالوجوب الذاتى[2] والزمخشرى يفسرها بالغنى عن العالمين[3] إلى آخر ما يقولون فى تحديد هذه الصفة « المقدسة » .

والغزالى فى كتابه « المقصد الأسنى فى شرح أسماء الله الحسنى » يقول : « لا ينبغى أن يُظن أن المشاركة فى كل وصف توجب المماثلة . أما ترى أن الضدين لا يتماثلان وبينهما غاية .

---

(١) ج ٥ ص ٤٧٦

(٢) ج ٥ ص ٤٧٩ على هامش تفسير « الفخر الرازى »

(٣) ج ١ ص ٥٢٩

البعد الذى لا يتصور أن يكون بعد فوقه ، وهما متشاركان فى أوصاف كثيرة . إذ السواد يشارك البياض فى كونه عرضا ، وفى كونه لونا ، وفى كونه مدركا بالبصر ، وفى أمور أخرى سواها

وعلى ذلك فلا يلزم من أن نصف مخلوقا بأنه موجود مثلا ، أو بأنه رحيم ، أو بأنه سميع بصير لايلزم من ذلك أن نكون قدشبهناه بالله تعالى ، وأثبتنا له المثل لأن المماثلة عبارة عن المشاركة فى النوع والماهية : فالفرس مثلا وإن كان بالغاً فى الكياسة لايكون مثلا للأنسان لأنه مخالف له فى النوع ، وإنما يشابهه فى الكياسة التى هى عارضة خارجة عن الماهية المقومة لذات الانسانية ، والخاصية الإلاهية أنه الموجود الواجب الوجود بذاته التى عنها يوجد كل ما فى الإمكان وجوده على أحسن وجوه النظام والكمال ، وهذه الخاصية لا يتصور فيها مشاركة البتة [1] .

بناء على ذلك ، ومادمنا لا نريد من مثلنا صفة تنزه عن صفات المخلوقين فلا مانع من أن تسند المثل الأعلى لمخلوق .

ومدلول المثل الأعلى بالنسبة لنا . هو الصفة العالية التى ترضى أنفسنا ، وهذه الصفة العالية التى ترضى أنفسنا تختلف باختلاف الناس . يعنى أنه ليس هناك مثلى أعلى يقره الجميع — اللهم إلا الخير على وجه عام — بل لكل مثله : فهذا مثله « بطل » فى صورة شاعر . وهذا مثله « بطل » فى صورة مصلح اجتماعى . وذاك مثله « بطل » فى صورة كاتب قدير ، أوعالم تحرير ، أوسياسى ماهر ، إلى آخر ما يرسمه كل لنفسه من أجل تحقيق أسمى نوع ممكن من الحياة .

---

(١) ص ١٥ ، ١٦

ومثلك الأعلى هو ما ترضى عنه نفسك ، لا مايرضى عنه غيرك ، وهو ما تعتقد أنت أنه خير لك لا ما يعتقد غيرك أنه خير لك . فأنت أنت الذى تحدد مثلك ، وأنت أنت الذى تختار طراز الحياة التى تستهويك . ومن هنا يفشل كثير من الناس فى هذه الحياة لأنهم لا يختارون مثلهم بأنفسهم ، وإنما يختاره لهم غيرهم ويجبرون عليه . وفى هذا سر عجز بعضنا عن إبداع عمل عظيم .

والمثل الأعلى عند « أفلاطون » شىء مثالى صرف يعنى أنه ليس بضرورى أن يتجسم فى صورة عملية ليكون صحيحاً ، بل هو صحيح وإن قصرت الحقائق الواقعة عن أن تتوامم معه وتبلغ مرتبته . أو : «هو نموذج مقره فى السماء يحاول البشر أن يحاكوه ولكنهم لا يستطيعون أن يبلغوه .

وأما عند « أرسطو » فهو « قوة مؤثرة » يعنى أن المثل الأعلى يكون أولا شيئاً « مثاليا » تتمثله فى ذهنك ، وتتصوره فى مخيلتك ، ثم بعد ذلك تربطه بالنظم القائمة بالفعل. أى أنك ترسمه فى ذهنك ثم يدفعك هذا على أن تأخذ نفسك على التطبيق بالفعل فى سبيل الوصول إليه . مع العلم بأن المثل الأعلى من شأنه أن يفر منك كلما وصلت إليه . فمثلا قد يكون فى نظر طالب أن يجتاز امتحانه بنجاح . فإذا ما نجح فرّ منه إلى نيل وظيفة ، ثم إلى ترقية فى العمل . وهكذا يجرى منا المثل ونحن وراءه حتى تنتهى الحياة .

والمثل — غالباً — ينتزعه الإنسان من بيئته التى يعيش فيها : فمن يعيش فى بيئة « لصوص » يرسم مثله فى أن يكون لهم زعيما ، ومن يعيش فى بيئة صلاح وتقوى يتخيل مثله فى أن يكون بطلا فى صورة « واعظ » دينى

أو « مصلح » اجتماعى والذى يشب فى بيئة سياسية يتصور مثله فى أن يكون « زعيما » لأمة ، أو رئيس حزب سياسى ، إلى آخر ما ينتزعه الناس من بيئتهم التى يعيشون فيها .

وإذا كنت ترى بعض المثل تافهة غير مناسبة ، وترى بعضها مناسباً فهل هناك من مقياس تقيس به « المثل الأعلى » بصفة عامة ؟

المقياس أن يطابق المثل « الأخلاق » و « الجمال » و « العقل » فإذا تمشى المثل مع هذه الأشياء كان مثلا مناسباً ، وإلا فهو غير مناسب .

وسير العظماء هى ذخيرة المثل العليا المناسبة .

والقاعدة الذهبية التى ينبغى أن يقام عليها « المثل الأعلى » هى هذه : « لا مِلْكَ للإنسان على الحقيقة إلا مَا تَمَلَّكَتْه نفسُه لا مَا تَمَلَّكَتْه يَدُه » فما تَمْلكه فى الحقيقة هو ما كان فى نفسك ، وكل ما عدا ذلك فهو فى يد الدهر لا فى يدك — أنت — فلأن تكون كعمر بن الخطاب فى « عدله » خير ألف مرة ومرة من أن تكون كقارون فى « ماله » ولأن تكون كأبى العلاء فى « شاعريته » خير ألف مرة ومرة من أن تكون كالإسكندر فى ملكه . فالغنى « غنى النفس » وقوتك يجب أن تنبع من ذاتك أنت لا أن تُستمد من شىء خارج عنك ، وترى الذين يستمدون قوّتهم من شىء خارج عنهم . تراهم يضعفون بزوال سبب هذه القوة فالذى يملك « عزبة » يضعف بضياعها منه . والذى يملك « مصنعاً » يضعف بذهابه عنه . والذى يستمد قوته من « وزارة » أو « إمارة » يضعف بسقوط الوزارة ، أو ذهاب الإمارة . أما أولئكم الذين تنبع قوتهم من ذواتهم ،

ويستمدونها من أنفسهم فهم أقوياء حتى بعد أن يفارقوا هذه الحياة ، أقوياء بنفوسهم ، وبآثارهم التى خلفوها لنا فى بطون التـــاريخ ، وعلى ظهر هذه المعمورة .

أنظر إلى الأنبيـاء والمرسلين صلوات الله عليهم أجمعين . أو انظر إلى العلماء ، والشعراء ، والأدباء ، والفلاسفة ، ورجال الفن ، فهل ترى التاريخ قد خلدهم لضياع كانوا يمتلكونها ، أو لمال كانوا يقتنونه ، أو لجاه وسلطان كانوا يتمرغون فيه . إنه لم يخلدهم إلا لقوة نبعت من ذواتهم هم ، ومن أنفسهم هم فكانوا على الدهر ورغم أنف الدهر خالدين .

وليس معنى هذا أننا نحقر المادة ، أو ندعو للإعراض عن المادة . كلا : فالمادة عصب الحياة ، أو هى وسيلة الحياة ، بل بدونها لا يمكن أن تكون حياة . إنما المسألة الغنية عن البرهان ، والتى ينبغى أن يفهمها الشباب جيدا ، وأن يقف عندها طويلا ، ويعمل لها كثيرا هى أنه « لا ملك على الحقيقة إلا ما تملكه النفس » أما ما تملكه اليد فهو وإن كان ملكا إلا أن الدهر يملكه أكثر منك ... وهذا هو ما دعا « ديوجين » ـ تلميذ أنتستين ـ إلى أن يقول ـــ لما وقع أسيرا فى يد الأعداء ، وعُرض للبيع فى السوق . ولمح شريفاً من أشراف القوم فى زينته وخيلائه : « بيعونى من هذا فأنى أراه يحتاج إلى سيد » وهو بهذا يشير إلى أن بعض الناس يفهم أن « سيادته فى ملبس « فاخر » أو مركب « أنيق » أو فى خدم وحشم على طول الطريق وعرضه . وهؤلاء « عبيد » هذه النظرية الخاطئة فى نظر هذا الفيلسوف « الساخر » وفى نظر من يفهم الحياة على وجهها الصحيح .

إن هذا الفيلسوف لم يصفهم بهذا الوصف إلا لما كان يشعر به من لذة السيادة على نفسه . وهل جهادك فى سبيل الحصول على « مثلك » إلا وسيلة بها تتعود أن تكون على الحقيقة « سيداً » ؟ ؟ ؟

إن ما فى العالم من « نفاق » سببه « الفقر » لا فى المال ، وإنما الفقر فى « النفوس » . . . . ألست ترى أن نفس « ديوجين » هذا كانت من أغنى النفوس بما عندها من معانٍ هى أسمى من المال وما فى حكم المال ؟ وهل هناك أسمى من أن تكون بنفسك غنيا وعلى نفسك سيدا ؟ ؟ ؟

والسبب فى أن بعض الناس يفشلون فى هذه الحياة أنهم لا يرسمون لأنفسهم مثلا أعلى يهدفون إليه ، أو أنهم لا يعرفون أن يرسموا لأنفسهم مثلا يولون وجوههم شطره ، بل يعيشون فى هذه الحياة كيفما اتفق ، وهؤلاء فى حاجة كبرى إلى أن يتذوقوا لذة الحياة ، وهذا يتطلب نشاطا لا يفتر ، واعتمادا على النفس ، وقدرة على أن تكافح وتكافح فى سبيل « مثل أعلى » تهدف إليه .

إن المشرفين على « توجيه » النشء إن فى الأسرة ، أو فى المدرسة ، أو فى غير الأسرة وفى غير المدرسة عليهم وعلى رجال الإصلاح الاجتماعى على وجه عام أن يلفتوا النظر دائما إلى وجوب أن يكون للفرد مثل أعلى يهدف إليه ، وعليهم أن يعودوهم على أن يحاسبوا أنفسهم على ما قطعوا فى سبيله ، على أن يحملوا « المشعل » أمامهم دائما .

قابلنى مرة طالب سمعنى أوجه أبنائى إلى أن يرسم كل لنفسه « مثلا أعلى » يحبس نفسه فى سبيله سنوات معدودات على معنى أنه لا يعرف فى عشر

سنوات مثلا إلا أن يسعى إلى مَثَله ، وإلا أن يحاسب نفسه على ما قطع فى سبيل مثله ، وإلا أن يخلص إلى مثله الإخلاص كله والسعى كله . قابلنى فطلب أن أرسم له « مثلا » فبينت له خطأ هذا « الطلب » وأنه ينبغى أن يرسم هو لنفسه مثله ، على ضوء ميوله ، ومشاعره . فقال : ميولى ومشاعرى فى أن أكون « كاتبا » ينفث وحى ضميره فى صفحات تطير فى أنحاء الأرض فيقرؤها أكثر خلق الله . فما هو الطريق ؟

فقلت له : احفظ القرآن الكريم . وكذا . . . من أحاديث رسول الله صلوات الله عليه . وكذا . . . من خطب العرب . وكذا قصيدة من عيون الشعر واقرأ التاريخ ، و . . . و . . . إلى آخر ما يلزم لهذا « المثل » على أن تكتب بالفعل من الآن لآخر ، وعلى أن تستمر لذلك فى عمل هادئ متواصل مستمر مدة كذا . . . سنة . فقال : ومن أين لى هذا العمل الهادئ المتواصل المستمر وأنا أشتغل « جرسون » فى مقهى لأستعين لا على طلب العلم فانتشار الكتب وسهولة اجتلابها يسهل الأمر ولكن لأستعين على « لقمة العيش » وفى « بيئة » تحتقر « الفقير » ولا ترحم ذوى الفاقة . فقلت له : فليكن « مثلك » أن تقتلع هذه الأغراس اللئيمة من تُربة النفس بعملك مهما لبست له المسوح وشددت الحبل فى وسطك ، وليكن لك فى أبى تمام خير قدوة ، فلقد كان يطوف على « حلقات » الدروس فى جامع عمرو يسقى الماء . وكأنى أتخيله الآن ينحنى يصب الماء من « إبريقه » وهو يقول :

لا يحسم العقل والدنيا تساس به ما يحسم الصبر فى الأحداث والنوب

فتركنى مدة إلى أن قابلته من أيام يقول : لبثت سنوات أبحث فى سير

العظماء عن الينابيع الباطنة الخفية التى تكفل التوفيق فى سبيل « المثل الأعلى ». فما وجدت إلا « الصبر » على العمل ينبوعا .

* * *

وإذا كان « المثل الأعلى » يختلف : بين مَثَل أعلى « للدعوة » ومثل أعلى « للشخصية » ومثل « للبيان » ومثل فى الأخلاق إلى آخر ما يكون من مثل فأن محمد بن عبدالله صلوات الله عليه خير مثل فى هذه النواحى جميعها . ولنضرب مثلا من خلقه لعلنا على ضوئه نسير .

لما رأت قريش « أن دم الشهيد هو الذى يسقى بذور الدين الجديد » رأوا أن يغروا الرسول بعرض الحياة الدنيا لعل ذلك يصرفه عن تسفيه أحلامهم ، وتحقير دينهم ، فتقدموا إليه وهو جالس فى الكعبة ، وقال له كبيرهم « عتبة » — نائب قريش — : « يا ابن أخى إنك منا حيث قد علمت من البسطة فى العشيرة ، والمكان فى النسب . وإنك قد أتيت قومك بأمر عظيم ، فرقت به جماعتهم ، وسفهت به أحلامهم ، وعبت به آلهتهم ودينهم ، وكفَّرت به من مضى من آبائهم ، فاسمع منى أعرض عليك أموراً تنظر فيها لعلك تقبل منها بعضها ، فقال رسول الله ﷺ : « قل يا أبا الوليد ، أسمع » قال : يا ابن أخى ، إن كنت إنما تريد بما جئت به من هذا الأمر مالا جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالا ، وان كنت انما تريد به شرفا سودناك علينا حتى لا نقطع أمراً دونك ، وان كنت تريد ملكا ملكناك علينا . وان كان هذا الذى يأتيك رئياً من الجن لا تستطيع رده عن نفسك طلبنا لك الطب ، وبذلنا فيه أموالنا حتى نبرئك منه ، حتى اذا

فرغ «عتبة» ورسول الله يستمع منه قال: أقد فرغت يا أبا الوليد؟ قال: نعم. قال: فاستمع منى [1]:

بسم الله الرحمن الرحيم

حم، تَنْزِيلٌ مِنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ، كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْءَاناً عَرَبِيًّا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ، بَشِيراً وَنَذِيراً فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لا يَسْمَعُونَ، وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِمَّا تَدْعُونا إِلَيْهِ وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَاعْمَلْ إِنَّنَا عَامِلُونَ، قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ وَاسْتَغْفِرُوهُ وَوَيْلٌ لِلْمُشْرِكِينَ، الَّذِينَ لا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ، إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ، قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَنْدَاداً ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ، وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِنْ فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِلسَّائِلِينَ، ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعاً أَوْ كَرْهاً قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ، فَقَضَاهُنَّ

(١) المثل الأعلى فى الأنبياء تأليف «خ. كمال الدين» تعريب أمين محمود الشريف ص ٩٧

سَبْعَ سَمَوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَى فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ، فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنْذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ ، إِذْ جَاءَتْهُمُ الرُّسُلُ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ قَالُوا لَوْ شَاءَ رَبُّنَا لَأَنْزَلَ مَلَائِكَةً فَإِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ » (سورة فصلت من آية ١ — إلى ١٤) .

ولما انتهى رسول الله صلوات الله عليه إلى قوله تعالى : « لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ » لما انتهى إلى هذه الآية « سجد » لله ، ثم رفع رأسه فقال : سمعت يا أبا الوليد ما سمعت ، فأنت وذاك .

انظر إلى هذا المثل الأعلى فى الخلق فهل ترى له نظيرا ؟

واستمع إليه صلوات الله عليه فى موقف آخر يشبه هذا الموقف يقول : « ما جئت بما جئتكم به أطلب أموالكم ، ولا الشرف فيكم ، ولا الملك عليكم ، ولكن الله بعثنى إليكم رسولا ، وأنزل على كتابا ، وأمرنى أن أكون لكم بشيراً ونذيرا ، فبلغتكم رسالات ربى ، ونصحت لكم ، فأن تقبلوا منى ما جئتكم به ، فهو حظكم فى الدنيا والآخرة ، وإن تردوه علىَّ أصبر لأمر الله حتى يحكم الله بينى وبينكم » .

وهكذا كان صلوات الله عليه يعتصم بالصبر فى انتظار النصر .

فهل لنا أن نتخذه مثلا ؟